الطبيعة الصامتة فى ألمانيا و فرنسا فى القرن السابع عشر

ظهر فى ألمانيا فى القرن السابع عشر؛ الفنان كريستوفر باديس Christopher Paudiss (١٦٣٠– ١٦٦٦) الذى كان تلميذ المصور رمبراندت، و أتضحت موهبته التصويرية فى تجسيد العالم المحسوس بأسلوب ناعم فى توزيع الضوء و الظل و الألوان الفضية التى شملت عناصره بجو لطيف خال من الخطوط و الزوايا الحادة، مع احساس بالإستقرار و السكينة. ففى لوحته (طبيعة صامتة خاصة بالمطبخ) (شكل ٢٧) صور ركن من اركان المطبخ يظهر به عناصر تبدو و كأنها وضعت بصورة عشوائية فى ذلك المكان. و لكننا إذا تأملنا ترتيب العناصر؛ سنجدها تأخذ خطوة تصاعدية تبدأ من الثوم الموضوع على المائدة و منه إلى الجريدة و الإناء المعلق، ثم البصل فى أعلى الجدار، و يرتد النظر إلى أسفل مرة أخرى مع الحاجز المعدنى المغروس فى الحائط و الذى يؤدى بدوره إلى الثوم، و تبدأ العين تلك الرحلة من جديد.

و تميز فى ذلك القرن أيضا مجموعة من الفنانين الفرنسيين، منهم الفنان سباستيان استوسكوبف Sebastian Stoskopff (١٥٩٧ – ١٦٥٧) الذى اشتهر بتكويناته المبتكرة من العناصر التقليدية التى تناولها بأداء متميز، و نشاهد و نشاهد ذلك من خلال لوحته (سلة بها كؤوس و فطيرة لحم) (شكل ٢٨) التى استطاع بأدائه المتميز إظهار شفافية الكؤوس، أمام الخلفية القاتمة بلمسات بسيطة، و تنغيمات لونية متنوعة.

و اشتهر أيضا المصور جان بابتست أودرى Jean-Baptiste Oudry (١٦٨٦ – ١٧٥٥) بتصويره الحيوانات الميتة بألوان باردة و تأكيدات واضحة، حيث يتضح ذلك من خلال لوحته (البطة البيضاء) (شكل ٢٩) التى تظهر بها بطة بيضاء معلقة، تتدلى بإسترخاء على مفرش فوق مائدة عليها شمعدان، لم يقصد من ورائها أى معنى أو رمز، ولكن الفنان أراد الوصول من خلال هذه العناصر إلى تكوين منتظم عن طريق عناصر قليلة و متنوعة بالنسبة للمظهر الخارجى و تتسم بالليونة و الهدوء.

و ظهر فى فرنسا أيضا؛ المصور أليكساندر فرانسوا ديسبورتز Alexandre-François Desportes (١٦٦١– ١٧٤٣) الذى اشتهر بلوحاته لمناظر الصيد و الحيوانات مع الزهور و الفاكهة. مثال لذلك لوحته (خوخ فى طبق فضي) التى نشاهد بها الخوخ في وعاء ذو أرجل فضية و ببغاء أفريقي رمادي اللون مع طيور على سطح منضدية مغطاة جزئياً (شكل ٣٠) و نلاحظ أن الفنان ابتكر هنا اسلوب جديد فى تناول الطبيعة الصامتة، عن طريق وضع مرايات تعكس التكوين بحيث تظهر للمشاهد جوانبه الغير مرئية، مع اهتمامه الواضح بإظهار أدق التفاصيل بأسلوب منمق و هادئ.

شكل٢٧ . طبيعة صامتة خاصة بالمطبخ، كريستوفر باديس، زيت على توال، 46.5 x 62 cm، ١٦٦٠

شكل ٢٨ . سلة بها كؤوس و فطيرة لحم، اسباستيان استوسكوبف، ستراسبورج ، متحف نوتردام

شكل ٢٩ . البطة البيضاء، جان بابتست أودرى، 95.3 x 63.5 cm، ١٧٥٣

شكل ٣٠ . خوخ فى طبق فضى، فرانسوا ديسبورت، زيت على توال، .121.3 x 90.5 cm، ١٧٣٣

الطبيعة الصامتة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر

أصبحت فرنسا مركز للإشعاع فى القرن الثامن عشر بالنسبة لفن التصوير الأوربى، و تطورت الطبيعة الصامتة بها بحيث حققت عصرها الذهبى عندما تناولها فنانوا ذلك العصر و أعتبروها شكل فنى غنى؛ فأنتجو من خلالها أعمال بارزة و مميزة ، متبعين طريقة شاردان الذى وضع بلوحاته النهاية الحقيقية لنمط الروكوكو. يكفى النظر للوحات شاردان Jean–Baptiste–Siméon Chardin (١٦٩٩– ١٧٧٩) لندرك أننا بصدد فنان عظيم، أمتلك بمهارته الفطنة والشجاعة ليبتعد عن الموضوعات المتأنقة و المزخرفة و يستبدلها بجمال العالم الحقيقى.

و الطبيعة الصامتة الخاصة بالفنان شاردان عبارة عن عوالم صغيرة هادئة تبدو و كأنها تعانق كل أشكال الطبيعة المرئية، حيث نشاهد داخل لوحاته تنوعات من العناصر، منها الأرانب المعلقة و الطيور التى تستلقى بليونة على المائدة و القدور و الأطباق (شكل ٣١) و الأوعية النحاسية و أوانى الخزف الصينى (البورسلين) بجانب تكويناته المتطورة من الزهور (شكل ٣٢) و أدوات التصوير التى يستخدمها، كل هذا أمام خلفياته المحايدة. كما يتضح لنا تأثر شاردان بلوحات الطبيعة الصامتة الهولندية فى لوحته (طبيعة صامتة) (شكل ٣٣) و لكننا إذا قارنا بين تلك الإنعكاسات الواضحة على الأوانى اللامعة فى لوحات بيتر كليز أو كالف؛ تتضح لنا نعومة و شفافية شاردان، و تأثره أيضا بالفنان رمبراندت فى لمسات فرشاته الحرة التى تجسد العناصر باللون دون أن تترك زوايا أو حواف حادة؛ مكونا سطوح سميكة أحيانا من تظهر بها لمسات فرشاته، و الأجمل عند شاردان؛ هو ذلك الإحساس الفعلى لشخصية تلك العناصر البسيطة[٢٢].

حيث اختلف شاردان أيضا عن فنانى هولندا فى القرن السابع عشر لإهتمامه بالعنصر كجزء من تكوين بسيط متواضع لأشياء عادية يستطيع الفرد أن يجدها فى أكثر المنازل تواضعا، دون أن يعيرها أى انتباه. فقد أهتم شاردان بالطبيعة الصامتة بما يمتلكه من حس راقى برؤيته الفنية الخاصة دون الإرتباط أو التقيد بالإستخدام اليومى لها، و جعل لها أهمية عظيمة بأسلوبه الذى أضفى عليها قيمة لونية و تشكيلية عالية.

أما المصور بيير سوبليرا Pierre Subleyras (١٦٩٩ – ١٧٤٩) فكان متمسكا بالتقاليد القديمة فى محاولته لمحاكاة الواقع و إضفاء بعض الرموز على عناصره المنتقاة. مثال لذلك لوحته التى جسد بها معالم شخصية فرانسيس الأول (شكل ٣٤) قائد الجيش الفرنسى فى إيطاليا، برموز من الطبيعة الصامتة حيث صور تمثال نصفى رخامى نحته الفنان برنينى Gian Lorenzo Bernini (١٥٩٨ – ١٦٨٠) و جعله يحتل مساحة كبيرة من اللوحة معبرا عن علو المكانة التى يحتلها فرانسيس الأول، مع وجود عناصر متناثرة على المائدة منها الدرع و الأسطرلاب و القفازات البيضاء و القرنفل الأحمر و تمثال برونزى لهيراكلس Heracles و هو يساند العالم، و طائر ارجوانى مزرق داكن و تمثال لإمرأة مزعورة و خلفها أطفال؛ كل تلك العناصر رمز بها سوبليرا لصفات فرانسيس الأول، و الشخصية التى تميز بها، فعبر من خلال الدرع و الإسطرلاب عن بسالة هذا القائد فى الجيش، و اهتمامه بعلم الفلك، و رمزت القفازات البيضاء و القرنفل الأحمر لمظهره المتودد، و أشار تمثال هيراكلس للوازع الأخلاقى لفرانسيس الأول، و عبر الطائر بلونه الأرجوانى عن مشاركته فى المطاردات الأرستقراطية للصيد، و مثلت المرأة المذعورة مع الأطفال فى خلفيتها؛ أهوال الحروب التى يحمى القائد بلاده منها.

وضح سوبليرا و شاردان الفرق بين (صانعو اللوحات) و (المصورون) فى القرن الثامن عشر، فصانع اللوحات كالفنان سوبليرا يريد من المشاهد إدراك الخواص المميزة للعنصر فى الواقع، ليلاحظ نجاحه عن قرب و براعته فى المحاكاة، أما شاردان فهو يفصل عناصره عن البيئة ليحصرها داخل إطار لوحته فى عالم آخر من صنعه و هنا تتجسد براعته كمصور[٢٣]. فهو يريد من المشاهد تذوق هذا العمل الفنى بما يحمله من قيمة فنية عالية.

شكل ٣١. طاولة المطبخ، شاردان، زيت على توال، ٣٦× ٢٧ سم

22) Julius S. Held, Donald Posner, " 17 and 18 Century Art " P. 314, 317.
23) Albert E. Elsen, Purposes of Art, P.328

شكل ٣٢، آنية زهزو، شاردان، زيت على توال، 45،20 x 37،10 cm، ١٧٦٠

شكل ٣٣. طبيعة صامتة مع أدوات فنية، زيت على توال، 112x140،5 cm، ١٧٦٦

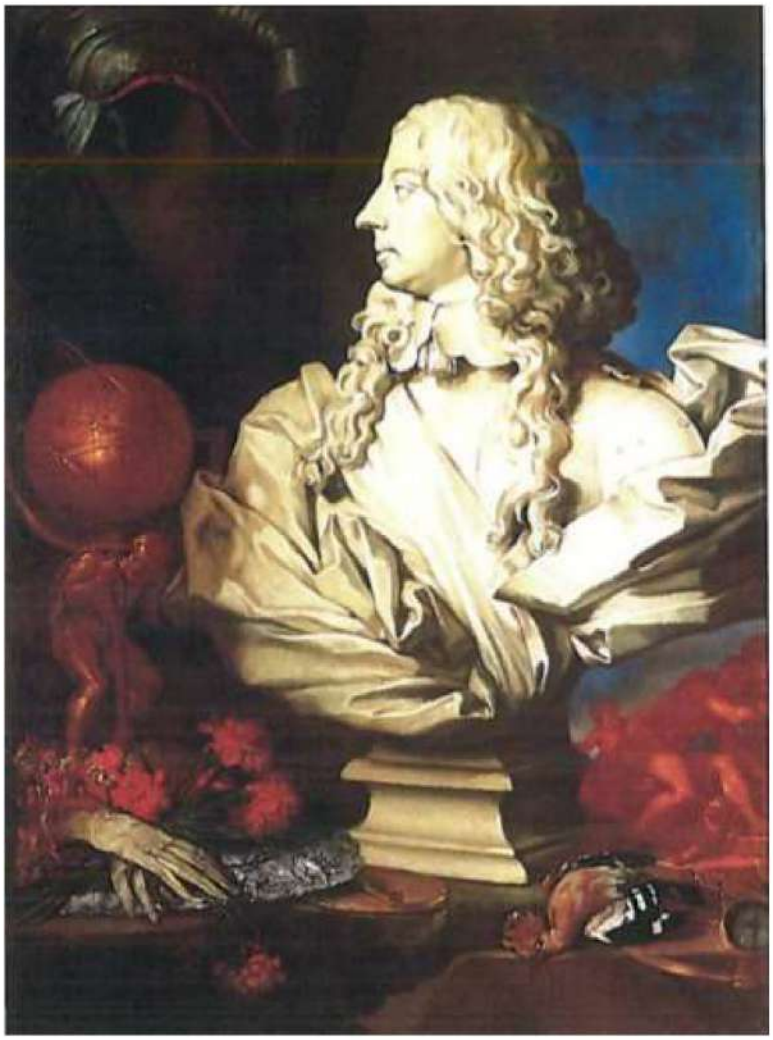

شكل ٣٤. بيير سوبليرا. طبيعة صامتة مع تمثال نصفي لفرانسيس الأول ، معهد مينيابوليس للفن

الطبيعة الصامتة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

تحرر الفن و الفنان فى القرن التاسع عشر من سيطرة الإقطاع و الملكية المستبدة و الكنيسة، و ظهرت النظريات العلمية و الفلسفية الجديدة التى كان لها أثرها الكبير على الفن، و أحدثت الآلة الفوتوغرافية إنقلاب فى طرق الآداء الخاصة بمصورى ذلك العصر، كما تحول اتجاه الفن من الفردية إلى الجماعية فى صورة الحركة الرومانسية، التى كانت بداية الطريق للعديد من المذاهب الفنية.

و الحركة الرومانسية هى اتجاه فى الفن يضع الأهمية الأولى فى العمل الفنى للتعبير النفسى و العاطفى، حيث يسعى فنان هذه الحركة إلى جذب الأنتباه لمشكة انسانية؛ تاريخية أو من خياله، فيظهر باللعمل شخص متألم أو مظلوم أو محب فى حبكة درامية فنية، و ألوان معبرة عن الموقف الذى يعيشه.

من أشهر فنانى هذه الفترة فى أسبانيا؛ فرانشيسكو دى جويا Francisco José de Goya y Lucientes (١٧٤٦– ١٨٢٨، و فى فرنسا تيودور جيريكو Jean-Louis André Théodore Géricault (١٧٩١– ١٨٢٤) و أوجين ديلاكروا Ferdinand Victor Eugène Delacroix (١٧٩٨– ١٨٦٣). لم يظهر فى تلك الفترة لوحات للطبيعة الصامتة بإستثناء أعما نادرة لجويا و ديلاكروا (شكل٣٥) و (شكل ٣٦).

و فى منتصف القرن التاسع عشر ظهرت الحركة الواقعية التى تجنبت الموضوعات الخيالية و التاريخية و التعبيرات الرومانسية، و كان هدفها الأساسى هو تمثيل الأشياء كما هى، و بالتالى كان لفنانى هذه الفترة لوحات من الطبيعة الصامتة مدروسة بأسلوب واقعى لا يختلف كثيرا عن الطبيعة الصامتة السابقة لها، لذلك لا نستطيع إعتبار تلك الأعمال مساهمة فعلية فى تطوير موضوع الطبيعة الصامتة.

شكل ٣٥. طبيعة صامتة من الدنيس الذهبى، جويا، زيت على توال، ١٨٠٨– ١٨١٢، متحف الفن الجميل، هوستن

شكل ٣٦. المبيعة الصامتة مع الكركند، ديلاكروا، ١٨٢٦–١٨٢٧، متحف اللوفر، باريس